كتاب ابن الرومى

نقد وتحقيق بقلم الاديب الكبير

السيد مصطفى صادق الرافعى

السيد مصطفى صادق الرافعى ، فى المقدمة من رجال الادب القديم ، وهو بحق حامل لوائه والذائد عن حياضه .

واذا كان قد بدأ كتابته فى (المعرفة) بنقد كتاب الاستاذ العقاد ، فليس ذلك عن غرض كما قد يتوهم البعض ، أو عن تآمر — بين الاستاذ الرافعى والمحرر — كما يتوهم آخرون ، ولكنه نقد بريء ، قصد به الى اظهار الحق ، بعيداً عن الغرض .

ويحسبنا أن نصارح قراءنا بأن ثمة خلافا ... كان بيننا وبين الاستاذ الرافعى ، من ستة أشهر تقريبا ولكنه زال ولله الحمد ، على أثر تشريفه لنا بزيارته ، وتفضله بهذا النقد الطريف .

ويسر (المعرفة) أن تصارح الاستاذ العقاد ، بأنها على استعداد تام لنشر ملاحظاته ، ان كانت له ملاحظات على هذا النقد .

المحرر

(السيد مصطفى صادق الرافعى)

وضع الاديب عباس محمود العقاد كتابه هذا فى الكشف عن حياة ابن الرومى واستخراجها من شعره ، وفى الكلام على أدبه ونهجه ، وفى بيان منزلته ومحله ، ثم خصائصه ومزاياه ، وغفلاته وسقطاته ، فكتب فى كل ذلك ثلاثمائة وثلاثين صفحة ، دخلها كثير من شعر ابن الرومى يستدل به ، أو يستنبط منه ، أو يخرج عليه ، ثم ختم كتابه بستين صفحة اختارها من ديوان الشاعر وقال « إنها تتم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها »

وقد وقع الي هذا الكتاب فقرأته ، فاشككت أن المؤلف قد كان يتوجه و يقارب الغاية لو أنه عكس الوضع فى كتابه ، فاختار من شعر ابن الرومى ثلاثمائة وثلاثين صفحة وكتب عنه الباقى ، اذ ليس الاعتبار فى مثل هذا البحث بالورق والحشد فيه ، ولا بالجرى على عادة الاستعمال فى الكتابة الصحافية ، التى بلغت أن تجرى فى أصابع كتابها مجرى الكلام فى ألسنتهم .... بل هو التاريخ لايجوز أن يخلق ابتداعاً ، ولا أن يحدث على غير ماحدث ،

فلا تتحمل له الفروض ، ولا تلتمس فيه غير حقائقه ، وليس للكاتب فيه إلا الحادثة على نصها ، ثم إقامة الحجة على وجهها ، ثم شرح العلة على مقدارها ، ثم ما بين ذلك من استخراج الاسباب التى تتوافى بها الحوادث وتجتمع وتتركب ، ثم ما حول ذلك مما لا بد أن تسترسل فيه نفس الكاتب من فن الملاحظة أو ملاحظة الفن ، ليثبت أن التاريخ قد اتصل منه بالحياة مرة أخرى .

ولو أن متعصباً على ابن الرومى منحرفا عنه ، قد أفرط فى تهجينه واستهلكه بالنقد ، ونعى كل سيئاته ، ونقض كل حسناته ، لما كان بعمله ذاك الا فى الجانب الآخر من صنيع العقاد الذى غلا فى ابن الرومى أشد الغلو ، وتعسف له المعانى ، وجاوز به التقدير ، وأخذه حقيقة ، وأبرزه خرافة ، فهو من هذه الناحية فى حكم التاريخ كذلك المتعصب ، كلاهما لا يكتب على مذهبه الا وقد وضع عن نفسه أنه ليس فى الناس من يعتبر عليه بنقد أو يتعقبه بتصحيح ، وكلاهما لا يمضى إلا على ما صور له الغرض ، ولا يقصد الا قصد التسويغ لما فى نفسه ، وكلاهما بتاريخه وراء الحدود التاريخية . . .

يقول الاديب عبد الرحمن صدقى فى ما كتب فى المقتطف عن العقاد وكتابه : « إن كل لفظ فى عبارته له قيمة الارقام الحسابية الدالة على العدد . . وإنها لمعجزة أن تكون هذه الدقة الحسابية مفرغة فى قالب من جمال الفن السامى » . ونقول نحن : إن الذى تقع له هذه المعجزة فيما يكتبه حرى أن لا يخطىء فيما ينقله ، وإن من لا يوثق بصحة تحريزه لما يقرأ ، خليق أن يكون بعيدا عن معجزات البيان بل عن البيان نفسه .

لقد صحح العقاد غلطات كتابه واستدركها فى آخره ، وأحصى منها ما لا خطر له كتصحيح نفخ الريح بنفح الريح ، والفرد بالتمرد ، فما وقع فى نقله مما لم يصححه فانما هو غلط فى الفهم وانما هو شىء لا يجرى فى (الدقة الحسابية) ولا يدل عليها بل على تمحيضها . فانظر أين الدقة فى هذا البيت الذى ورد فى صفحة ٢١ :

كم رضيع هناك قد فطموه بشفا السيف قبل حين الفطام

وإنما هى « بشبا السيف » . وفى صفحة ٢٩ نقلا عن معجم الادباء « يلاثم الخمار ويفيق الشهوة » وصوابها « ويفتق الشهوة » . وفى هذه الصفحة عينها « لأمر ما قد قمت » وإنما هى قدمت . وفى صفحة ٤٠ عن معجم الادباء « وأمرت بنقله إلى آخر نار الله وسعيره » والصواب الى حر نار الله . وفى صفحة ٦٧ فى خادم اسمه إقبال نقلا عن كتاب العمدة « ومنكوس اسمه لا بقا » وهى معكوس اسمه . وقد يظن القارىء أن هذه غلطات مطبعية ولكنه يصيبها كذلك فى الكتب التى نقل عنها العقاد ، فهى غلطات لم تقع منه ولكن وقع هو فيها . ومنها فى صفحة ٧٢ نقلا عن أمالى المرتضى « فدخل يوماً (الوزير) عبيد الله الى أبى الحسن (ابنه القاسم الذى سمم ابن الرومى) وابن الرومى عنده ، فاستنشده من شعره .

فأنشده وخاطبه ، فرآه مضطرب العقل « جاهلا » ، وكرر هذا النقل فى صفحة ٢٥٦ وهو كذلك فى الامالى . قلنا: فاذا كان ابن الرومى جاهلا ولا يراه كذلك الا الوزير الكاتب البليغ عبيد الله بن سليمان ، ففيم كتاب العقاد .. ؟ إنما صواب العبارة فرآه مضطرب العقل ذاهلا . وقد وصفوا ابن الرومى بأنه كان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حال ، وذلك هو الذهول . وفى صفحة ١١٢ يصف ابن الرومى زيغ بصره :

وشورك طرفى فالشخوص حياله قرائن من أدنى مدى وهى فرد

يريد أنه يرى الشيء اثنين ، وكرر العقاد نقل هذا البيت فى صفحة ١٣٠ وفسر هذه البركة... واستدل بها على أن ابن الرومى يتهكم حتى بنفسه ، مع أن القصيدة التى منها البيت تحسر وتوجع ، ولا تحسب معتوها فضلا عن رجل كابن الرومى يعد مثل هذه العلة بركة فى نظره ، وإنما هى (وشورك طرفى) أى كأن فى عينه ناظرين للشخص الواحد ، وهذا هو المعنى الشعرى الدقيق لا ذلك المعنى الفاسد الذى يقول فيه العقاد: إنه « يحمد الله على زيغان بصره » ... ونعوذ بالله من هذا الذوق الفاسد .

وفى صفحة ١١٨ يقول العقاد وهو يصف ابن الرومى بما استدل عليه من شعره . . إنه كان يعاف المشمش لأنه دواء لاغذاء .

إذا ما رأيت الدهر بستان مشمش فأيقن بحق إنه لطبيب

وقد أيقنا بحق . . . أن العقاد لم يفهم المعنى ، فكيف يعاف الشاعر السقيم المعتل فاكهة تكون دواء للجسم ؟ أما الذى يريده ابن الرومى فهو أن المشمش داء (لادواء) إذ هو ينتهى بمن يأكله الى الطبيب ، وهو معنى أخذه مما كان يقول به الاطباء من أن هذه الفاكهة تجلب الحمى ، فهكذا يستدل مؤلفنا بشعر ابن الرومى على حياته وصفاته . . .

ومثل هذا كثير فى الكتاب أحصيناه كله واجتزأنا بهذا القدر منه تفاديا من الاطالة وهو حسبك فى الدلالة على تميز العقاد وفهمه وبصره بالكلام .

* * *

ونعرض الآن لموضوع الكتاب فهو كما قلنا يجرى على عادة الاستعمال فى الكتابة الصحافية ، حتى ما من ورقة فيه إلا وانت تستطيع أن تنقض منها على المؤلف أو ترد عليه إذ كل ما فى الكتاب استرسال ، وإغراق وترخص ، كأنه يأخذ الكلام عسفاً وجرفاً . حتى خرج بابن الرومى عن مقداره ومقدار عصره كأن الرجل كان فى زمنه غفلا غير معروف ، فلا يفهمه أحد ولا يتعاطى شأوه إنسان ، وكأن شعره الذى وضعه من ألف سنة بقى ألف سنة لا يجد من يفصح عما كان فى نفس واضعه . ثم ما الذى كان فى نفس واضعه يومئذ وأخفاه ابن الرومي عن قومه وعصره وعن نفسه أيضا . . . ؟

كانت هناك أصول ومعان لا تكشف الا بعبارات مترجمة من كتب الأدب الأوربى فى هذا العصر . . . « كعبادة الحياة ، ومنح الطبيعة الحياة من عنده أو من عند الخرافات . . . والاصغاء الى سر الحياة الكامنة فى الأرض ، والعلم أن أنسه بالطبيعة مستمد مما يفيضه هو عليها من دلائل الحياة ، والخلع من شبابه عليها والخلع من شبابها عليه والمزج بينهما مزجاً لا نحاله يكون الا فى مهجة واحدة . . . . وإعطاء الحياة و إعطاء الشخوص . . . ولهنوات (كذا) النفوس عنده شخوص يخاطبها وتخاطبه . وعالم الطفولة الخالدة لم تزدها السنون الا إمعاناً فى الطفولة و اغراقا فى اللعب وشوقا الى الحلوى و رهبة من العصا . . . »

نظن أنه لا ينفع العقاد أن تقره الدنيا كلها على تعقيد حياة ابن الرومى هذا التعقيد اذا كان لا ينكره عليه إلا ابن الرومي نفسه وأهل عصره . على أن كل كاتب يستطيع أن يتناول أسخف الشعر وأرذله وأبرده من أى عصر شاء ، ثم يحمل عليه كل ما جاء فى كتاب العقاد عن ابن الرومي من مثل هذه العبارات ، و يوطىء له منها و يشرحه بها من نحو :

قال محمد : هو ابن مالك أحمد ربى الله خير مالك

فانظر كيف بر الناظم أباه ؟ وهذا فيه دليل التقوى و الورع كأنه يكافئه على ايجاده إياه بتخليد اسمه فى أول كلماته ، ثم ذكره اسمه دليل على عبادته الحياة و رغبته بعد الموت أن لا يموت اسمه ، كأنه أعطى الحياة الآتية من بعده شخصاً ليس فيها ، ولكن لا بد أن يكون فيها ولا بد أن يبقى فيها ما بقيت العربية . و تأمل كيف جعل نفسه (يقول) وهو ميت لا يقول شيئاً ، فهذا دليل على أن لهنوات النفوس عنده شخوصاً ... كما أنه دليل على طفولته الخالدة ، إذ أظهر صفات الطفل أن لفت النظر اليه . الخ الخ

أفيسمى مثل هذا الكلام الصحافى بحثاً فى البيان والأدب و الاستدلال على الحياة بالشعر ؟

* * *

تكلم المؤلف فى المقدمة عما سماه الطبيعة الفنية ، ونقل قول ابن خلكان فى وصف ابن الرومى اذ يقول « هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، و يبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ». قال العقاد : وهذا وصف صادق كله ولكنه ليس بكل الوصف . فهو تعريف ناقص والناقص فيه هو المهم .... إذ هو هو المزية الكبرى فى الشاعر ، وهو هو الطبيعة الفنية التى تجعل الفن جزءاً لا ينفصل من الحياة . ثم انسحب على هذا المعنى وخلط فيه على طريقته المعروفة التى تدل القارىء المتبين أن الكاتب يشعر دائماً بأن رأيه لضعفه أو شذوذه موضع

المنازعة والمحاجة ، فهو يرقعه من كل فتوقه ، و يضطره ذلك أحياناً أن يأخذ رقع الثوب من الثوب نفسه ، فاذا ناحية مرقوعة بناحية ممزقة...

ليس ابن الرومى لغزاً يشر يأ ، فأنه كان شاعراً « صاحب توليد غريب ومعان نادرة ، ولا يترك المعنى ، حتى يستوفيه إلى آخره » ، فهل هـذا الا من أنه « صاحب طبيعة فنية و إحساس حى وأن ذخيرة نفسه تتطلب التعبير للافتنان فيه ؟ وهل كان واجباً على أدبائنا وعلمائنا المتقدمين أن يبقوا أحياءاً على الأرض ألف سنة حتى يقرؤا الكتب الأدبية الأوربية الحديثة ، و يصفوا ابن الرومى بألفاظها ليتمموا التعريف باللغة الأدبية المترجمة التى لا يقبل فى مصر غيرها ؟

إنما خلط العقاد ذلك الخلط لأنه لم يفهم معنى « التوليد » ولا المعانى النادرة وظن هذا كله صناعة وزخرفا و «أدوات للتعبير » حتى قال : فاذا لم يكن عند الشاعر ما يعبر عنه ، فكل معانيه وتوليداته ونوادره لغو لا حاجة بنا اليه ، واذا ما كان عنده ما يعبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا إغراب ولا استغراق ، فقد أدى رسالته .

ونحن نقول: إنه ليس على وجه الارض عبقرى ذو طبيعة فنية إلا وأساس عبقريته «التوليد» وحده ، لأن هذا التوليـد هو الاحساس الحى بالمعانى ، وهو القوة التى يتحول بها الكون فى نفس من الأنفس الرقيقة الى التعبير ، وهو أساس الالهام والدرجة الممكنة من الوحى لغير الانبياء ، وبه يحس العبقرى أن الكون فى ذاته وأنه متراخى الحدود مع الاشياء ، وأن الحياة مضاعفة فيه بآلامها وأفراحها ، وأنه منصوب لتفسيرها مهيأ لابلاغ رسالة من رسائلها .

فليس التوليد أخذ معنى من غيره فان هذا بعض عمله ، أما هو فهو الملكة المتأتيـة من أسباب كثيرة : أولها الطبيعة الفنية التى لا يخص الله بها إلا أهل هذه الملكة وحدهم . وفى الجملة فالتوليد هو اسم آخر للجهاز العصبى الدقيق المرهف المستحكم ، إذ لا يستطيعه الا من وهب هـذه الموهبة أو من أصيب بها . فلو فقد ابن الرومى ملكة التوليد لكان نظاماً ليس غير . والعجيب أن العقاد يقول : فقد تحذف منه توليداته ومعانيه ، ولا تحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية . . .

أحذف ! ويحك ، توليدات ابن الرومى ومعانيه ، فكيف تعرف أنه شاعر ؟ وكيف يبلغك فى التاريخ وما هي عناصر الشاعرية التى تدلك عليه ؟ واذا لم يكن إلا رديئه والساقط من كلامه والسخيف من معانيه فكيف بهذا يكون عندك « الشاعر من فرعه إلى قدمه » وهو قد حرم طبيعة الشعر وملكة الاستجابة للاحساس التى سموها بعملها أى التوليد ؟

وتكلم المؤلف عن عصر ابن الرومى ـ وعصر ابن الرومى هو عصر كل شاعر كان فيه ـ فلو ترجمنا لمائة شاعر من أهل هذا العصر ، لوجب أن يتكرر هذا الفصل مائة مرة. على أن عصر

الشاعر، ليس هو الخلفاء والأمراء والحكام والنظام والاقطاع والحالة السياسية والحالة الدينية والحالة الأخلاقية، وهذا الحشو الثقيل الممل، بل هو ما اتصل بالعصر وحياته من الشاعر نفسه. وهبك تكتب عن رجل فى مستشفى المجاذيب فما صلة هـذا الرجل بالخلفاء والأمراء والسياسة والدين الخ الخ؟ إن عصر مجنون فى مستشفى المجاذيب هو مستشفى المجاذيب لا غير..

وانتقل المؤلف لأخبار ابن الرومى فظن عند نفسه أنه استقصاها، على حين قد فاتته أشياء كانت أمس بموضوعه منها: هذا الخبر الذى يدل على أن الشاعر كان يدون آراءه، فقد نقلوا أنهم عثروا فى بعض «تسطيراته» على كلام اعتذر به عن أبى تمام فقال: إنه يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ، حتى لو تم له المعني بلفظة نبطية لأتى بها... وهذه هى طريقة ابن الرومى بعينها، فالخبر نص فى أنه يتبع أبا تمام، كما كان يتبع جريرا فى طريقته فى الهجاء من بنائه على السخر وإغراقه فى ذلك، والاضحاك به، وهذ أيضاً لم يذكره العقاد. ولو أطال أبو تمام الشعر إطالة ابن الرومى لما أفلح ولو خفف ابن الرومي تخفيف أبى تمام لما أخفق. فكل ماخلط فيه العقاد من أسباب خيبة ابن الرومى لايتوجه منه شيء وإنما السبب فى تلك الخيبة غوصه على المعانى وطول قصائده، فهما مصيبتان اذا أريد بهما التكسب، وهما السر فى ضعف صناعته الشعرية، وأنه كان يسفسف كثيراً ويضعف وذلك بعض ما نخالف به.

مصطفى صادق الرافعى

اطلبوا

المجلد الأول، أو الأعداد التى تنقصكم، من إدارة المجلة مباشرة.

دار الترقي للطبع والنشر بالقاهرة

اطلبوا منها الكتب والروايات الآتية: —

رواية ابراهيم الكاتب — للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى.

كل شيء هادىء فى الميدان الغربى — الرواية الألمانية الشهيرة تعريب جريدة الوادى.

المتمردون — مجموعة قصص مصرية: للأستاذ محمود كامل المحامى.

صندوق الدنيا — للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى.